السنة الحادية عشرة   العدد ١   كانون الثاني   سنة ١٩٠٨

المشرق

التذكار المئوي لوفاة الفم الذهبي

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

هوذا الكاهن العظيم الذي ارضى الله
في ايامهِ ووُجد بارًّا كاملًا

هو الثناء الطيب الذي استعارتهُ الكنيسة من اقوال ابن سيراخ لتطاري بهِ كهنتها العظام . الذين انشأ الربّ فيهم مجدًا كثيرًا وابدى على يدهم عظمتهُ بين البشر « اولئك الذين كانوا « رجال اسمٍ وبأسٍ فخلّفوا لهم ذكرًا يُخبر بمدائحهم . اجسامهم دُفنت بالسلام واسماؤهم تحيا مدى الاجيال »

على انّ بين اولئك الائمة الفطاحل قد برز افرادٌ يتلألأ نورهم في فلك الكنيسة كالكواكب الزُّهر او النيّرات الساطعة التي تشعّ بضيائها فتقرّ بها البصر حيثما مال . وقد شبّههم السيّد المسيح بسرجٍ على منائر يستضيء بهم اولادُ الله ويقتبسون من انوارهم في كل اطوار الحياة . او قل بالحري انهم في عالم الدين بمثابة العناصر التي يستمدّ منها المرءُ لنموّ جسمهِ وكمال معاشهِ . ولا جرم انّ القديس يوحنّا المعروف بفم الذهب في مقدّمة اولئك الرجال العظام الذين تفتخر الكنيسة بمآثرهم وتستقي من مواردهم لاسيا الكنائس الشرقيّة التي شحنت طقوسها من اقوالهِ وتعاليمهِ فلا تكاد تقيم رتبةً الّا تتغنّي بمحامدهِ وتتقرّب الى الله بادعيتهِ

فللّه درّ الكنيسة الرومانيّة التي لم تشأ ان تمرّ عليها السنة ١٩٠٧ وهي تمام المئة الخامسة عشرة لوفاة ذلك الملفان الكبير دون ان تقيم لذكرهِ اعيادًا حافلةً في عاصمة الكثلكة لتشيد بمحامدهِ وتنشر على رؤوس الملإ مفاخرهُ . وقد أعلنتنا اخبار رومة ما

عُقد فيها من الحفلات الشائقة وتُلي من الخطب الرائقة في نوادي الادباء منذ الشهر ايلول الذي فيه كانت وفاة القديس ثمَّ تتابعت هذه مجالي الإكرام والعزّ في الاشهر التالية فزادت بهاء ورونقاً حتى تبلغ غايتها في أواخر كانون الثاني من هذه السنة الجديدة حيث يقع تذكار عيده في الكنيسة اللاتينيَّة

فما احقَّ بالنصارى الشرقيين عموماً والسوريين خصوصاً ان يشاركوا الكنيسة البطرسيَّة بفرائض الشكر وواجبات الاكرام يقدّمونها لذلك العلَم الشهير الذي وُلد في مواطنهم وقدَّس بلادهم باعماله الخطيرة وشرَّفهم بتآليفه الممتازة ومواعظه المسجديَّة . وقد سرَّنا انَّا رأينا غبطة بطريرك الارمن الكاثوليك تأسى بأمّ الكنائس فاقام الرُّتب البهجة واحتفل الحفلات الشهيَّة في الاستانة العليَّة حيث سطع ذلك النور الأنور على كرسيّ القسطنطينيَّة فزيَّنهُ بفضله وفضائله وخلَّد لهُ ذكرًا لا تطمسهُ الدهور

وهذه مراسيم الشكر والامتنان تحدو بنا أن نفتتح سنتنا الجديدة بمقالة نخصُّها بذكر وطنيّنا العظيم ونتيمّن بتدوين اسمهِ في هذه المجلة التي وقفناها على مثالهِ لخدمة الدين والعلم

وليست نيَّتنا هنا ان نسرد كل اعمال الذهبيّ الفم فان ذلك يقتضي مجلَّدات ضخمة سبقنا اليها غيرنا من الكتبة وانَّما نكتفي ان نمثّل شيئاً زهيدًا من مآثره في اسقفيَّته فنبيّن انهُ كان قدوةً للاحبار وصورةً حيَّة لرعاة الكنيسة

قد اختصر السيّد المسيح لذكرهِ المجد واجبات خدّمة الدين بهذه الآية لمَّا قال في انجيله الطاهر (متى ٥ : ١٩) : « الذي يعمل ويُعلّم ذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات » . وقد تقدَّم الربّ وجعل نفسهُ قدوة لرعاة الكنيسة « في جميع الامور التي عملها وعلّم بها » (اعمال ١ : ١) فوضع كمال الكهنوت في العمل اوَّلًا ثم بالتعليم لأنَّ الكاهن ولاسيما الاسقف الذي هو رأس الكهنة أُقيم راعياً للنفوس ومن شأن الراعي ان يتقدَّم خرافهُ فتمشي هي على آثاره وتقتدي بهِ وتسمع صوتهُ

وقد حقَّق يوحنَّا فم الذهب في شخصه هذا الكمال الكهنوتي فكان في كلّ اطوار حياتهِ وبالاخصّ في مدَّة اسقفيتهِ رجلَ عمل وعلم. قلَّما نال فيه منهما ما اصابهُ

هو

١ رجل العمل

ظهر يوحنا فم الذهب في عصر كثرت فيه الرجال العظام فكانت الكنيسة بعد المحن والاضطهادات التي صادفتها في القرون الثلاثة الاولى قد انتصرت على اصنام الوثنية فجلست بهمة قسطنطين الكبير على منصة المجد والبهاء كالشمس تبدد السحب الحاجبة نورها فتبعث باشعتها الساطعة الى اقاصي السماء. فأنى القيت الابصار رأيت جهابذة سموا بفضلهم وزينوا مواطنهم بعلومهم ومآثرهم. فازدهت رومية بعظيم احبارها داماسوس واعتزت ايطالية بامبروسيوس وافتخرت غالية بايلاريوس وتباهت افريقية باوغسطينوس وتشرفت فلسطين بايرونيموس واستنارت مصر باثناسيوس وتغنت الجزيرة باناشيد افرام السرياني كما طربت بلاد بنطوس بقصائد غريغوريوس اللاهوتي واعتزت لتعاليم باسيليوس الالهي. فلم يشأ الله ان تعدم سواحل الشام كوكبا زاهرا فجعل حصتها يوحنا الذهبي الفم ليضم نوره الى تلك الثريا النيرة وحبذا النصيب

كان مولد يوحنا في انطاكية نحو السنة ٣٤٤ من اب قائد لجند الرومان اسمه سكندس ووالدة تدعى انتوسة وكان كلاهما مسيحيا على خلاف ما زعم بعض الكتبة انهما تنصرا بعد ولادة ابنهما. ثم توفي سكندس ولم يبلغ الولد سوى اربع سنوات فعطفت عليه والدته ولم تشأ لها تعزية الاه فترعرع الغلام في حجر امه وما لبث ان احيا فيه شهامة والده الجندي ودماثة اخلاق والدته وذكاء اهل وطنه

فلما رأت انتوسة مخايل النجابة لائحة على محيا ولدها وأنست برغبته الى العلوم سلمته الى ابرع اساتذة وطنه وكانت انطاكية في ذلك العهد امّ مدن الشرق تباري اكبر حواضر العالم الروماني بمدارسها وصيت معلميها. فبعد ان اتقن يوحنا قواعد الايمان ومبادئ الادب تخرج في فن البلاغة على خطيب زمانه المصقع ليبانيوس فاقر له استاذه بعد حين بالسبق على اقرانه. ثم درس الفلسفة على اندراغاثيوس احد ائمة الفلاسفة فاصبح لماما في كل مشتملاتها. ثم اضاف الى هذه المعارف الدنيوية ما هو اسمى واشرف فتتلمذ لاستاذين فاضلين كزتيريوس وديودورس واخذ عنهما العلوم الدينية النظرية والعملية فوجداه عما قليل اهلا لأن يتصدر لارشاد غيره في هذه الفنون كلها

على انّ يوحنا لم يتفرَّغ لتلك الدروس لغاية بشريَّة ليرتقي منها او ليطلب بها جاهاً وفخراً بل اتخذها ليستعين بها في انتهاج سُبل الكمال فباشر مذ ذاك الحين تلك الاعمال التي سمقت به الى اعلى مراتب القداسة

واوَّل عمل صرف اليه نظره زهده بالدنيا وملاذها فاقتبل سرّ المعموديَّة على حسب عادة نصارى عصره الذين كانوا يؤخرون عمادهم الى سنّ الشباب او الكهوليَّة ثمَّ انتظم في سلك المترشحين للكهنوت لكنهُ تخوَّف من اعباء تلك الرتبة السامية فآثر عليها المعيشة النسكيَّة فهجر وطنهُ وودَّع والدتهُ الاسيفة على فراقهِ وفرَّ هارباً الى الجبال المجاورة لانطاكية لينقطع لخدمتهِ تعالى في جملة جماهير النساك الذين كانوا تألبوا في تلك القفار ليُحدثوا هناك عجائب رهبان الصعيد ولسقيط. فاندمج في سلكهم واقتبس من انوارهم واستسلم لكل اعمال الزهد وشظف العيش والتقشف التي مارسها سميُّهُ يوحنا الصابغ فكان يلبس المسوح الخشنة ويأكل مرَّة في النهار عند المساء قليلاً من الخبز القفار الاسود لا يأدمهُ بغير الملح وينام مراراً على الحضيض ويقسم بقيَّة وقتهِ بين الصلاة الى الله والاشغال اليدويَّة الشاقة

وكأنّ يوحنا لم يجد في هذه المناسك ما يروي غليلهُ من التقشفات فتوغَّل في البراري وأوى الى مغارة عند مصبّ نهر العاصي فعاش هناك عيشة اقرب الى عيشة الملاك منها الى عيشة البشر فكان يستحرُّ في الصلاة ليلاً مع نهار ويتأمل في معاني الاسفار المقدَّسة وهو لا يقتات الَّا بحشائش البرّ بل كاد ينسى أنَّ لهُ جسماً لا يقوى على مثل هذا العنف فأصيب بعد مدَّة بداء عضال اضطرَّهُ الى ان يعود على رغم منهُ الى وطنهِ . لأنَّ الله وجدهُ بعد اعتزالهِ عن ضوضاء العالم وتجرُّدهِ عن كل حطامهِ آلةً اهلة بمجدهِ واناء مختاراً يحمل اسمهُ بإزاء الشعوب والملوك فلم يشأ ان يترك هذا النور تحت المكيال

فاقبه يوحنا من مرضهِ حتى عوَّل ملاتيوس بطريرك انطاكية على ترقيتهِ الى درجة شمَّاس انجيلي فوضع على راسهِ اليدين وخصَّهُ بخدمة المذابح دون أن يعيِّر سمعاً لامتناعهِ وابائهِ . ثمَّ القى على عاتقهِ شيئاً من اعباء الاسقفيَّة كنظارة اوقاف الكنيسة وتوزيع الصدقات وارشاد الموعوظين ومشاركة الاسقف في خدمة الاسرار الالهيَّة . فقام بكل هذه المهامّ احسن قيام حتى انَّ ملاتيوس وكل اليهِ السهر على شؤون الرعيَّة في غيبتهِ

لمّا دُعي الى حضور الجمع القسطنطيني الاوّل المنعقد سنة ٣٨١ لنفي تعليم مكدونيوس المبتدع في لاهوت الروح القدس

ثمّ توفي ملاتيوس في القسطنطينية وخلفهُ على كرسيّ انطاكية فلابيانوس الذي عرف عند قدومهِ الى انطاكية ما بذلهُ يوحنّا من الهمّة في ضبط الامور وحفظ النظام فلم يتردَّد في ترقيتهِ الى الكهنوت سنة ٣٨٦ ليتخذهُ مُساعداً لهُ في كلّ الخدم المقدَّسة من وعظ وتعليم وارشاد واسعاف الفقراء وعيادة المرضى . وكانت في المدينة بقايا عادات مستهجنة وخرافات وثنيَّة ورثها الانطاكيون من عبَدة الاصنام آبائهم فأصلاها القديس حرباً عواناً حتى استأصلها من قلوبهم . وكذلك سعى السعي الطيب في ردّ الخطأة الى التوبة فأناب على يدهِ منهم عددٌ لا يفي بهِ الاحصاء وخلاصة القول جعل نفسهُ على مثال بولس الرسول كلًّا للكل حتى يربح الكلّ للمسيح

وقد ظهرت اعمال غيرتهِ الملتهبة وتفانيهِ في سبيل الخير العام سنة ٣٨٧ اذ اوغر الانطاكيون صدر ثاوضوسيوس الكبير لضرائب استثقلوا وطأتها فأبوا وفاءها وأخلد بعضهم الى الفتن وكسروا تمثال الملك فكاد هذا العمل يجلب عليهم الويلات لولا حكمة يوحنا الذي قام وقعد ليطفئ نار غضب الامبراطور ويخلّص المدينة مما تهدَّدها من العقاب الاليم فتراءف الله على شعبهِ وصرف عنهُ ضربةً لازبة كانت لو حلّت عليهِ بدَّدت شملهُ وجعلت انطاكية قاعاً صفصفاً . وانّما كان الفضل الاعظم في ذلك للذهبيّ الفم ولفلابيانوس الاسقف

وكان يوحنّا انتهز تلك الفرصة ليزرع في قلوب الانطاكيين اغراس الفضائل المسيحية ويسوقهم الى كل المساعي الخيريَّة فاضحت تلك العاصمة قدوةً لغيرها من المدن وبقيت على صلاحها زمناً طويلًا

بقي يوحنّا في انطاكية عشر سنوات يكدّ ويجدّ في فلاحة كرم الرب وتقليم اغصانهِ ليزيد جناهُ حتى اتّجهت اليهِ انظار الملك اركاديوس بن ثاوضوسيوس واتروب كبير وزرائهِ وجميع آل بلاطهِ ليعهد اليه تدبير الكنيسة القسطنطينية المترملة . وكان هذا الكرسيّ بعد اعتزال غريغوريوس النزينزي ووفاة نكتاريوس خلفهِ اصبح أُلعوبةً بايدي المبتدعين لا يطلبون منه الّا الارباح الخسيسة والمطامع الشخصيَّة فرأى الملك وخاصّتهُ انّ ذلك المنصب لا يعود الى شرفهِ وعزّهِ ما لم يُدعَ اليهِ راعٍ صالح كامل الصفات قادر على

تذليل الصاعب كيوحنا فم الذهب وما كاد يتلفظ باسمه حتى صرخ الجميع بصوت واحد انهُ « اهل لهذا المقام ليس مثلهُ راعياً لكنيسة القسطنطينية » فارسل الملك من وقته الى عامله في انطاكية ان يوفدهُ الى العاصمة . لكنَّ البطريق فكتور رأى دون انجاز امر سيده خرق القتاد اذ كان يعلم ما تكنهُ قلوب الانطاكيين من عواطف الحب والاخلاص نحو يوحنا فلم يجد طريقة اخرى ليقوم بامر الملك وينجو من ثورة الاهلين سوى الاحتيال فاستدعى يوحنا يوماً الى زيارة قبور الشهداء في ظهر اني المدينة خارجاً من اسوارها فلبَّى دعوتهُ وهو لا يعلم ما كمن لهُ . فما تجاوز القديس باب المدينة حتى ثقلهُ بعض الخدَم في عجلة مهيَّأة لذلك واخذوهُ شاء ام أبى الى ساحل البحر واركبوه سفينة أبحرت من وقتها الى القسطنطينية

حدِّث ولا حرج عمَّا جرى ليوحنا من الاستقبال الباهر وما أُقيم من الحفلات الشائقة لتصييرهِ بطريركاً على رومية الجديدة . امَّا اهل انطاكية فاصابهم بفقدهِ من الالم ما لا يفي بهِ وصفُ القلم وانما تعزَّوا قليلاً لما نال وطنيُّهم من الحظوى لدى اركاديوس واركان الدولة في حاضرةٍ كانت تُعَدُّ منذ ذاك الحين احدى امهات المدن وعجائب الدنيا

قبض يوحنا زمام التدبير لرعيَّتهِ بنشاط عظيم متكلاً ليس على نفسهِ بل على الله الذي دعاه الى تلك الرتبة السامية مع أنفتهِ من المناصب الرفيعة والجاه العالميّ وجعل نصب عينيهِ قول الرسول بطرس (في رسالتهِ الاولى ٥ : ٣) انهُ ينبغي على الاسقف ان يكون مثالاً لرعيَّتهِ . بل اراد ان يحيي في نفسهِ صورة الاسقف الكامل كما وصفها بولس الرسول في رسالتهِ الى تيموثاوس الاولى (٣ : ١—٧) وفي رسالتهِ الى تيطس (١ : ٦—١٠) بان يكون « بلا عيب عاقلاً مهذَّباً غير مُعجب بنفسهِ ولا سريع الغضب ولا ذي حرص على المكسب الخسيس بل مضيفاً للغرباء محباً للخير عادلاً تقيّاً عفيفاً ملازماً الكلام الصادق قادراً على التعليم » فهذا كلُّهُ قد مارسهُ يوحنا في منزلتهِ الخطيرة على تمامهِ لم يخلَّ فيهِ بحرف

وقد ابتدأ باصلاح دارهِ الاسقفية مباشراً بنفسهِ فكنت تراهُ يعيش عيشة افقر الرعاة يلبس بزَّة حقيرة ويستكف من كل فخفخة وعظمة وترف جارياً على موجب سيرتهِ القشفة التي سلكها مدَّة كهنوتهِ في انطاكية . وكان مثالهُ مؤثراً في حاشيتهِ الذين اخذوا اخذهُ واقتسوا بسياه في كلّ احوالهم . وقد أدى بهِ هذا الاقتصاد في

النفقات الى ان وفّر كنوز الكنيسة التي كان يمدُّها كاموال الله وكنوز الفقراء.

والحقُّ يقال انهُ اعتبر ذوي البأساء والمساكين والعجزة والمرضى كأعزّ اصدقائهِ فشرع يفيض عليهم سوابغ هباتهِ مما اقتصدهُ على نفسهِ واهل بطانتهِ وكان لا يكتفي بذلك بل يزور المنكوبين في منازلهم ويطول الايتام والارامل ويعود المرضى في المستشفيات فلا يحلّ في مكان الّا كملاك الله يترك فيهِ اثرًا من فضلهِ

ثمَّ صرف عنايتهُ الى اكليروس كنيستهِ وجميع بطريركيَّتهِ الواسعة فتذرَّع بكل الوسائل من لطف وتحريض وزجر وعقاب وكان يكفّ عن الكتابة والكلام او يرعوي الضالّون فيوفّقوا سيرتهم وملابسهم ومآكلهم واعمالهم على مقتضى القوانين الرسوليَّة وترتيبات الجامع ولا يخلُّوا بشيء من واجبات خدمتهم . وكان يعلم انَّ صدق قولهِ واستقامة خطتهِ لا ترضي كثيرين ممن استهواهم شيطان الاهواء وخدعهم روح الدنيا وزخرفها الّا انهُ لم يتوقّف لذلك عن القيام باعباء مهنتهِ مفوّضًا بامرهِ الى الله متخذًا لمداواة الاعلّاء انجع الوسائل واصلحها لا يبالي بهيجان العليل على طبيبهِ المحسن اليهِ

ومع ما أفرغ من الوسع في تهذيب رجال الدين جعل ايضًا يهتمّ بالعالمين ليصلح آدابهم ويقتلع من قلوبهم زوان الرذائل التي كانت عشّشت في صدور بعضهم فاستغوتهم وحادت بهم عن سواء السبيل

وكان بينهم رجال من وجوه القوم والاغنياء وذوي المراتب العليا وكان يوحنا لا يأنف من تحريضهم وتوبيخهم عند الحاجة لا يأخذ بوجه احد ولا يضحّي الواجب لغاية بشريَّة مع ما كان يتفاقم عليهِ كل يوم من تدبير الامور ومن الاهتمام بالكنائس بل كان يستطيع ان يقول مع الرسول (٢ كورنتس ١١ : ٢٩) : « من يضعف ولا اضعف انا او من يُشكّك ولا احترق انا » . فكانت دعوته الابويَّة ومواعظهُ الرعويَّة تدوي في قلوب الخطأة فتُلينها وتبدّد ظلماتها وتعيدها الى ذلك الراعي الصالح فتتوب على يدهِ توبةً نصوحًا وتجري على نصائحهِ الخلاصيَّة

وكأن الله اراد ان يضمّ صوتهُ السماوي الى صوت وليّهِ لردّ بعض المصرّين على آثامهم الى التوبة فحدثت في القسطنطينيَّة عدَّة مصائب ونكبات كادت تنخلع لها قلوب السكان هلعًا منها زلزال عظيم مادت لهُ الارض وهبطت بهِ عدَّة مساكن ومنها اعاصير وانواء طفت بها المياه واندفقت في احياء المدينة كالسيول ومنها المجاعة مُني بها

الوف من الاهلين وكان القديس مع تفانيه في اسعاف المنكوبين يتخذ كل هذه البلايا كعوامل لرد الضالين وتونيب الخاطئين وهداية المراطقة الذين ارجع منهم عددًا وافرًا الى حجر الكنيسة

وزاد الله على ذلك أن منح عبده صنع المعجزات والكرامات كشفاء المرضى والعلم بالغيب وقد اخبر المؤرخ سوزومان انّ امرأة شرّيرة ارادت ان تنتهك حرمة القربان الاقدس فحوّل الله الخبز الذي ابدلتهُ منهُ الى حجر لصق بفيها فلم ترَ مناصًا من الاقرار بخطيئتها فباءت بإثمها ثم اخرج القديس الحجر من حنجرتها على مرأى من الشعب

لكنَّ رجل الله لم يكتفِ بحسم الفساد عن رعيتهِ وكسر شوكة الرذائل بل عُني ايضًا برفع لواء الفضيلة وتعزيز روح الدين وتنشيط كل المشروعات الخيريَّة من تربية الايتام واسعاف المعوزين والاخذ بايدي البائسين . وكان يحضّ المؤمنين على مواترة الاسرار المقدَّسة وملازمة اعمال التُقى

وما كانت غيرتهُ منحصرة في حدود العاصمة بل كان يستغرق وسعهُ في اصلاح الاقاليم الثمانية والعشرين المنوطة بكرسي القسطنطينيَّة . وكان اذا دعا الامر الى ذلك لا يتردَّد في تجشم الاسفار واقتحام الاخطار لاستدراك الخلل الطارئ على تلك الكنائس كما فعل لما خرج الى افسس وعقد فيها مجمعًا لاصلاح شؤونها الروحيَّة ثم عاد الى كرسيهِ بعد جمع الشتات وتلافي الشرّ

وكان القديس يوجه نظرهُ الى ما وراء تخوم بطريركيته اذا رأى موجبًا للعمل فانهُ كان يعلم بانَّ بعض جهات سوريَّة لا تزال متسكعة في ظلمة الوثنيَّة فارسل الى اهلها مرسلين ينشرون التعاليم المسيحيّة واستنفد الوسع في هدم هياكل الاصنام التي كانت في فينيقية ولبنان فأُخربت ورجع المشركون الى جادَّة الحقّ

وممَّا امتاز بهِ يوحنا مدَّة رعايتهِ شهامة عظيمة جعلتهُ يضحي النفس والنفيس في سبيل الله والذبّ عن حقوق الكنيسة حتى بازاء الاعيان والاشراف . ولمَّا رأى الامبراطورة افذوكسيا لا ترعى ذمامًا للضعفاء لم يخف أن يُطالبها باداء الواجبات لتعطي لكل ذي حقٍّ حقَّهُ . فاوغرت تلك البسالة صدور اعدائهِ وكانت السبب الاقوى لما حلَّ بهِ من الشدائد التي أودت بحياتهِ

رجل العلم

هذه لمعة عن بعض اعمال يوحنا فم الذهب ألممنا اليها إلماماً خفيفاً لئلا تتجاوز الحدود التي يقتضيها المقام ألا انّ تلك الاعمال الخطيرة قد عضدها ذلك الحبر الهمام بالعلم الواسع قياماً بامر الرب القائل (ملاخي ٢ : ٧) « انّ شفتي الكاهن تحفظان العلم ومن فيه يطلبون الشريعة اذ هو ملاك رب الجنود » ووفقاً لقول السيد المسيح السابق ذكره (متى ٥ : ١٩) انّ العظيم في ملكوت السماوات هو الذي يضيف التعليم الى عمله . وذلك امرٌ يصحّ في كل الكهنة لكنَّهُ في الاساقفة أصدق وأحق لأنّ « الروح القدس اقامهم ليرعوا كنيسة الله التي اقتداها بدمه » (اعمال ٢٠ : ٢٨) فيرشدون المؤمنين ويعدلون بهم عن التعاليم الفاسدة ومن ثمَّ يحتم الرسول على الاسقف ان يكون قادراً على التعليم (تيموثاوس ٢ : ٢) وملازماً الكلام الصادق المختص بالقول لكي يقدر ان يعظ بالتعليم الصحيح ويحاجَّ المنافقين (تيطس ١ : ٦) فكلّ ذلك كان القديس يوحنا قد ادركه احسن ادراك وبناء عليه كان وطّن همّتهُ منذ شبابه على كل علوم زمانه الدينيّة والدنيويّة

وقد تدفّقت منهُ ينابيع العلم اذ كان بعدُ في انطاكية حتى قبل كهنوته . فمن اعماله الناطقة بفضله تأليفهُ العجيب في الكهنوت الذي لا يزال الى يومنا أصدق مرآة لسيرة الكهنة وسمو رتبتهم . وقد عقّب هذه باكورة اعماله بمصنَّف آخر جليل وضعهُ في اطراء الزهد والحياة الرهبانيَّة لمّا كان في جبال انطاكية في مناسك سيّاحها المتألهين بالروح العائشين كالملائكة متقمّصين بالجسد

ولما اضطرَّهُ المرض الى أن يعود الى انطاكية فعهد اليه كشماس اوّلاً ثمَّ ككاهن تعليم الشعب وتسنُّم المنابر لالقاء الوعظ خاض القديس في ميدان جديد كان هو افرس فرسانه فنال فيه قصبات السبق على كل معاصريه . فكنت تراهُ اذا رقي منبر الخطابة ازدحمت حولهُ الجموع تتلقّى من فيه تعاليم الخلاص برغبة لا مثيل لها فتارةً يجمدون امامهُ كأنَّ على رؤوسهم الطير لئلا يفوتهم من شفتيه كلمة وتارة يضطربون لقوله اضطراب البحر العجاج فينقادون الى كل حركات قلبه من أسف على خطاياهم وتوبة الى الله وشوق الى الصلاح وبغض لاهواء العالم وملاذه ورحمة لذوي البأساء والمساكين وربما كان الحضور يجهشون بالبكاء فيسيلون العبرات السخينة على آثامهم السابقة ويخرجون من الكنيسة كرجال جددٍ مودّعين لعاداتهم السيئة ليمجّدوا الله

ومما زاد ذلك النور توهجاً ان يوحنا وُجد في انطاكية في ظروف استدعت انتشار اشعته في كل النواحي . فهناك كانت الفلاسفة الوثنيون الذين ورثوا من ائمة اليونان آدابهم . وهناك كان علماء اليهود لاتساع متاجر قومهم في انطاكية . وهناك توفرت البدع ورسخ قدم اصحابها كشايعي مرقيون واريوس وانصار مقدونيوس وحزب اونوميوس . فقام يوحنا فم الذهب بازاء تلك الاديان والشيع « مستعداً في كل حين للاحتجاج لكل من يسألهُ حجج الرجاء الذي فيه » (١ بطرس ٣ : ١٥) فكان يوضح للجميع حقيقة الدين المسيحي ويفك المشاكل التي تُعرض عليهِ ويبين اوهام المبتدعين وقد ابقى من سمو بلاغتهِ وخلابة لسانهِ وقوة برهانهِ آثاراً عديدة في كل ما سبق ايرادهُ صبرت على آفات الزمان وهي لم تفقد حتى يومنا هذا شيئاً من محاسنها تراهُ يدكُّ الاوهام الى الحضيض ويقوّض الاقاويل السفسطية ويبني الحقيقة على صرح شاهق ذي اساس لا يتزعزع

واكثر ما اكسبهُ ذلك اللقب الشريف الذي عُرف بهِ اي الذهبيّ الفم خُطَبهُ التي القاها بعد ثورة انطاكية اذ كان يتهدد وطنهُ غضبُ الامبراطور فتمكن القديس مدة ايام متوالية من جمع مواطنيهِ في الكنيسة الكبرى فسحرهم بسحر بلاغتهِ الحلال وانعش في قلوبهم الثقة وفتح صدورهم للرجاء وصرف نظارهم الى آمال الآخرة وعقابها الاليم . وقد تحقق اليوم لدى العلماء انَّ الخطبة التي لفظها فلابيانوس على مسامع الامبراطور ثاوضوسيوس فاخمد بها غضبهُ انما كانت من قلم يوحنا فم الذهب يدلُّ على ذلك انشاؤها وبلاغتها

على انَّ علم القديس يوحنا فم الذهب لاح على مشهد الارض كلها لمَّا سُقّف على القسطنطينية فاضحى ثمَّ كالسراج الوهاج المرتفع على جبل فاستضاء بهِ العالم الروماني باسره . وكان هناك لا ينطق بخطبة الّا يتردد صداها في اقاصي المملكة لارتياح اهل الاقاليم الى ما يتولهُ ارباب العاصمة ولما اصابهُ يوحنا من الشهرة المستفيضة تتناقلها الالسنة من الداني الى القاصي

ومن آثارهِ في ذلك المنصب الشريف خطب عديدة في كل معتقدات الدين المسيحيّ كان يلقيها في ايام الاعياد والآحاد فيتقاطر الى استماعهِ نخبة اعيان البلد فتغص بهم الكنيسة الكاتدرائية . ومنها شروح وتفاسير على معظم كتب الاسفار المقدسة كان

ينطق بها في الحفلات الدينيَّة فيكشف معاني الكتاب المربصة ويلحقها بتعاليم ادبيَّة يستخلصها من نفس الفصول المشروحة فيجمع بين تنقيه العقل وبعث الارادة على الخير. وامتازت بين شروحه المقالات التي كتبها في تفسير الاناجيل لاسيما انجيل متى وفي شرح الرسائل البولسيَّة. وقد اثبت بعض اصحاب القديس انَّهم شاهدوا غير مرَّة بولس الرسول منحنياً فوق رأسه كأنَّهُ يُملي عليه تفسير رسائله وفكّ له رموزها

وكثيرًا ما كان القديس يُلقي خطبهُ ارتجالًا اذا ما مسَّت الحاجة الى ذلك فكان كلامهُ البليغ يخرج من قلبه في قالب من الحسن والمتانة يسبي العقول ويسترقها حتَّى ان الحضور كانوا يهيجون ويصفّقون له استحسانًا وان منعهم الخطيب عن ذلك غير مرَّة. فمن هذه الخطب خطبتهُ في نكبة اوتروب الحميّ وخطبهُ في اسعاف الفقراء والبائسين لا يقولها الَّا يستترف عبرات السامعين ويستطر من خزائنهم كنوز البرَّات والصدقات الغزيرة التي اعانتهُ على فتح مآوى ومستشفيات خصَّ بخدمتها سيدات شريفات كنَّ يساعدنهُ في مشروعاته الخيريَّة

ولا نتعرَّض هنا لذكر مصنَّفات اخرى جليلة كتبها يوحنا مدَّة بطريركيَّته كما انَّنا نضرب الصفح عن رسائل متعدّدة كان ينفذها الى مرؤوسيه واصدقائه ومنها ما هو بمثابة مجلَّدات واسعة. فان جدول كتاباته وحدهُ يستغرق عدَّة صفحات

فترى مما سبق انَّ الذهبي الفم حقَّق في نفسه ما قالهُ الربّ عن يوحنا الصابغ سميه (يوحنا ٥ : ٣٥) انهُ كان هو السراج المرقد المنير فابتهج بنوره اهل القسطنطينيَّة. لكنَّ ذلك السراج كان لبعض الحسَّاد والمعادين بمنزلة النور الباهر الذي لا يستطيع ان ينظر اليه العشي ومرضى العيون دون ان يتأذوا به وكان هؤلاء في اوَّل امرهم مستخفين لا يبدون حراكاً لكنَّهم كانوا يعدُّون في الخفية الدسائس لبطريرك القسطنطينيَّة ليبعدوهُ عن كرسيه حتى اذا سنحت الفرصة جاهروا له بالعداوة

وقد شاء الله ان يمنح عبدهُ جزاء غيرته واعماله فاتاح له ان يكابد الشدائد في اتمام واجبات رتبته والذود عن حقوق الكنيسة لينال الطوبى التي وعد بها الربّ المضطهدين في سبيل البرّ (متى ٥ : ١١) فاجتمعت عليه كل قوى الجحيم وتحاملت عليه اعداؤهُ حتَّى كادوا يسحقونهُ سحقًا وكان من جملة هؤلاء الاعداء بطاركة واساقفة فجمعوا مجمعاً حكموا عليه ظلمًا وعزلوهُ من مقامه فلم يجد القديس له ملجأً غير الكنيسة الرومانيَّة

لمّ الكنائس فرفع اليها دعواهُ لعلمه بان صاحب الكرسيّ الروماني هو امام الاحبار لهُ الحلُّ والعقد على الكنيسة كلها اذ هو نائب السيّد المسيح وخلف بطرس الرسول ليس حكم فوق حكمه (١). وكان الجالس على كرسي رومية حينئذ القديس اينوكنت الاوّل فلم يُخب مسعاهُ بل اخذ للوقت بناصر يوحنا وابطل اعمال الجمع المعقود ضدّهُ على خلاف القوانين وامر باعادة القديس الى مقامه وكتب في ذلك الى الامبراطور اركاديوس يتهدّدهُ بالحرم ان لم يفعل ولا ريب انهُ كان فاز برغبته لولا وفاة يوحنا

وكان القديس بعد حكم الجمع القسطنطينيّ أُبعد مرّة أولى عن كرسيه الّا انّهُ حدثت عند ابتعاده آيات وحلّت على اعدائهِ مصائب لم يروا النجاة منها الّا باعادة يوحنا الى كرسيهِ مكرّماً مبجلاً

لكنّ سخيمة الاشرار لا تُسَلّ من قلوبهم حتى يُهلكوا عدوّهم ويبرّدوا بموته غليلهم فانّ اعداء يوحنا رصدوا لهُ الشرّ وما لبثوا ان وجدوا في صدق لهجته وفي تأهّب غيرته لرفع لواء الدين داعياً جديدًا لمكاشحته فتواثبوا عليه كالذئاب الخاطفة على الحمل الوديع وتمكّنوا ثانية من نفيه فنُفي سنة ٤٠٤ الى جهات القبادوق ثمّ أُقصي الى بلاد سحيقة فقاسى من الآلام امرّها ومن الاوجاع اشدّها واحرّها وهو مع ذلك يُبدي من الثبات والبسالة ما جعلهُ اشبه براعي الرعاة الذي بذل حياتهُ دون خرافه

وكانت خاتمة تلك الحياة الصالحة انّ القديس مات في مدينة كومانة بعد ان تراءاه الله في آخرته برؤيا الشهيد باسيليكس الذي بشّرهُ بالنصر القريب. فانتقل الى دار البقاء في ١٤ ايلول سنة ٤٠٧. وكانت وفاتهُ بمثابة حبّة الحنطة التي قال عنها الربّ انّها اذا سقطت في الارض وماتت اتت بثمر كثير. فكذلك موت يوحنا الذهبيّ الفم كان كفوز باهر فانّ اهل كومانة والبلاد المجاورة الذين كان القديس انارهم بنور الحقّ قبل وفاته اقاموا لهُ مأتماً حافلاً وجعلوا يكرّمون قبرهُ إكرامهم لاعظم اولياء الله ثم انتشر خبر موته في المملكة فكان لهذا الخبر رنّة اسف شُقّت لها القلوب وما لبثت برارة القديس ان اشتهرت في اعين جميع معاصريه فزكّاهُ الكرسي الرسولي تزكية تامّة وحرم الذين كانوا سبب وفاته مهما كانت رتبتهم بل اقرّ اعداء القديس انفسهم

١) راجع في المشرق (٥: ٧٦١; ١٢٢) مقالة حضرة الاب اميل ريثر اليسوعي التي عنوانها: القديس يوحنا فم الذهب ورئاسة بطرس وخلفائه على الكنيسة الجامعة

بمعاملتهم السيئة ليوحنا فباؤا بإثمهم وكفّروا عن ذنبهم الّا البعض منهم الذين ماتوا موتًا وحيًا وعُوقبوا بعقاب اليم . ثم نُقل جسم القديس من قبره في كرمانة الى القسطنطينيّة بمظاهر جليلة تقاطرت اليها كل سكّان تلك الاصقاع . ثم نُقلت هذه الذخائر الثمينة بعد ردحة من الدهر الى رومية العظمى فجُعلت في كنيسة القديسين بطرس وبولس الفاتيكانيّة بجانب ضريحهما دلالةً على وحدة الشرق والغرب في الايمان والرجاء . وكان يوحنا اعظم ساعٍ لهذه الوحدة فلم يشأ الله ان يفرقهُ في مماتهِ عن هامتي الرُّسل ليكون ضريحهُ ضامنًا اكيدًا لرجوع الخراف الضالّة الى حظيرة المسيح فتصير الرعيّة واحدة كما الراعي هو واحد

حفلة عرس

في عشائر الشركس (١)

عرَّبها بتصرُّف الاديب لبيب افندي مشحور استاذ الفصاحة في كليّة القديس يوسف

حدَّث احد الرسلين الكاثوليك قال : بعث اليَّ يومًا وانا في طرقات شيخ احدى عشائر الشركس الضاربة في الضواحي يدعوني لحضور حفلة زواج اخيه . وكانت تربطني واياه روابط الصداقة الحميمة والحب المتبادل . فكرهت ان ارفض دعوتهُ واهمّتني نفسي لما انا عليه من الانقطاع عن العالم فتذكرت ما قالهُ احد مشاهير الكتبة : « لا بد للمرسل في تلك الاصقاع من التحبُّب الى العشائر واكتساب مودَّتها ليتمكن من عمل الخير بينها »

فتذمَّمت وركبت وركب اخ لي في الرهبنة له المام بالطبّ وسرنا في ليلة مقمرة الى عشيرة العروس حيث تبتدئ الافراح وبيننا وبينها مسيرة ست ساعات . وكان فصل الخريف قد بدت تباشيرهُ فحسنا بقشعريرة البرد ثم ثارت ريح صرصر فالتحفنا بالفراء واخذنا نتغنى في جوف الليل ونتمتَّع على ضوء القمر برأى جبالٍ تمتد في سفحها غابات صنوبر علت رؤوسها صفرة الخريف بينما كانت افراسنا تلتهم المفاوز تحت قمقمة سياطنا وتنشب سنابكها في الصخور وتصهل فتردّد الاصداء صهيلها

---

(١) اختصرنا هذه النبذة عن مجلّة المباحث

A. Poidebard : *Une noce tcherkesse*, Etudes, 1907, 20 Novembre.